مشكلاتنا التعليمية والتربوية
في
ضوء الإسلام

اختلاط الجنسين في مدارسنا

عثمان محمد عثمان

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

(قرآن كريم)

« الحياء والإيمان قرناء جميعاً . . فإذا رفع أحدهما رفع الآخر » .

(حديث شريف)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة الكتاب

كاتب هذه السطور مارس العملية التعليمية مدرساً أكثر من ربع قرن . . ثم مارس العملية التعليمية موجهاً بالمراحل الثلاث سبع سنوات .

أما هذه الكلمات — موضوع هذا الكتاب — فعمرها فى عالم التسجيل أربع سنوات . أما عمرها فى عالم التجربة — قبل التسجيل — فيتجاوز من السنوات الثلاثين .

وهذا الموضوع « الاختلاط فى التعليم » هو حلقة فى سلسلة شاء الله أن تخطها يدى وأن أفرغ منها فى يوليو سنة ١٩٨٠ أردت لها أن تخرج كلها فى كتاب يعرض لمعظم مشكلات التعليم فى مدارسنا بمراحله الثلاث : الابتدائية والإعدادية والثانوية ، واخترت عنواناً للكتاب : « أجراس الخطر تدق يا وزير التعليم » ، ثم أحسست أن المدرس والتلميذ هما طرفا القضية وأنى أكتب من منظار الإسلام وهو هكذا : « المعلمون وأجيالنا المسلمة . . إلى أين ؟! » .

ثم شاء الله أن يتلكأ الكتاب وهو فى طريق الطباعة والنشر فقلت : لماذا لا يخرج الكتاب فى حلقات بدلا من نشر الكتاب

كله دفعة واحدة ، فلعل ذلك أيسر على القارئ الذى ألف فى عصر السرعة أن يقرأ الصفحات القليلة . . . فما عاد القارئ يصبر على قراءة كتاب كثير الصفحات ؟ !

واخترت أن تكون الحلقات كلها تحت عنوان كبير « مشكلاتنا التعليمية والتربوية فى ضوء الإسلام » ، وآثرت أن تكون الحلقة الأولى من السلسلة هى « الاختلاط فى التعليم » إذ رأيت أنها ألصق بالتربية وأدخل فى باب القيم ، ثم هى تعكس بوضوح — ربما أكثر من غيرها — صورة الخلل الذى أصاب جهازنا التعليمى ، وتصور فى جلاء بعدنا عن روح الجد والالتزام الذى كان رائدنا فى حقل التعليم حتى الستينات .

والقارئ للسطور سيدرك أنى لم أتعرض لموضوع الاختلاط بين الجنسين إلا فى دائرة التعليم فقط وفى مراحله الثلاث : الابتدائية والإعدادية والثانوية . . أما الاختلاط بصوره المتعددة : فى الجامعة . . والمكتب . . والمصنع . . و . . . و . . . فلم أتعرض له ولعل الله أن يوفقنى لأتوفر على الكتابة فيه حتى يخرج فى كتاب .

وقد ذكرت آنفاً أن هذا الموضوع — موضوع الاختلاط — قد فرغت من كتابته — ضمن الحلقات كلها — منذ أربع سنوات وحين أعدت قراءته أحسست بأن الموضوع قد أصبح أكثر خطراً وأيقنت بأن المشكلة — وقد اتسع شرها وتطاير شررها — قد أصبحت أكثر إلحاحاً من ذى قبل . . ومن يدرى لعل الله أراد أن ترى السطور النور بعد سنوات ليكون صوت النذير أقوى ! !

ولعل من غريب المصادفة أن أمسك بالقلم اليوم الموافق الرابع من شهر مارس سنة ١٩٨٤ وقد احتفلت الدولة بالأمس بعيد العلم ! .

ولعله من المناسب أن أقتطف سطوراً أقدمها بين يدى الكتاب : سطور من الخطاب القيم للرئيس حسنى مبارك والذى ألقاه – نائباً عنه فى عيد العلم السيد الوزير مصطفى كمال حلمى « والأمل معقود عليكم أيها الإخوة المعلمون فى بذل مزيد من الجهد ليكون التعليم أكثر قدرة على تحمل مسئولياته ، والمشاركة فى تطوير الحياة على أرضنا العزيزة وتأصيل قيمنا الرفيعة وغرس المثل والأخلاقيات النبيلة ، وتعميق الإيمان الصادق والسلوك الدينى » .

فليكن هذا الكتيب جهداً متواضعاً – فى حقل التعليم – ليكون المعلم والمتعلم كلاهما أقدر على تحمل المسئوليات ومواجهة التبعات .

وليكن هذا الكتيب – فى حقل التربية – إسهاماً بالكلمة ، ومشاركة بالتجربة . . ودعوة إلى قيمنا العليا ومثلنا النبيلة والأصيلة . . . وليهيئ الله لأمتنا أجيالا مستقيمة وجادة .

أجيالا أشد حياء . . وأكثر نقاء . . وأوفر عطاء .

وبالله التوفيق .

« المؤلف »

الأحد غرة جمادى الآخرة سنة ١٤٠٤ هـ
٤ من مارس سنة ١٩٨٤ م

الاختلاط والضرورة

أؤمن إيماناً راسخاً – من وجهة النظر الإسلامية – بأن التعليم المختلط فى كل مراحله خطأ تربوى وشر خلقى !

وأؤمن – بحكم التجربة الطويلة(١) – بأن الفصل بين الجنسين إغلاق لأبواب من الانحراف نحن فى غنى عنها برغم كل دعاوى الحرية والتطوير ! .

إن المتصفح بشىء من العناية فى آيات الكتاب الكريم والسنة المطهرة يدرك فى وضوح ويسر أن الإسلام لا يرحب بالاختلاط ولا يحبذه ما لم تفرضه الضرورة الملحة وبقدرها .

إن رسولنا صلى الله عليه وسلم يقول عن صفوف المسجد وهو أطهر مكان وأقدسه : « خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها » . . والحكمة واضحة من

---

(١) كاتب هذه السطور أمضى فى التدريس وحده ما يقرب من ربع قرن ، تنقل خلالها فى مراحل التعليم الإعدادى والثانوى ، وبكل أنواعه سواء فى التعليم العام أو الزراعى والصناعى والتجارى ، وتنقل خلالها فى الوجهين البحرى والقبلى ، وتنقل فى المدن والأرياف ، ثم أمضى سنوات قبلها وهو طالب بكلية الآداب ، فى جامعة مختلطة ، وأمضى ما يزيد على نصف المدة فى مهنة التدريس فى مدارس للبنات ، ويضاف إلى الرصيد تجربة الواقع الكبير والمرير فى المجتمع كله .

كراهية الإسلام لهذا الاختلاط — ما لم تقتض الضرورة الملحة أو الحاجة الطارئة — حتى ولو كان هذا الاختلاط فى بيوت الله حيث تضعف شهوات النفس ، وحيث تخف وساوس الشيطان . . وهو يحبذ هذا البعد بين الجنسين . . ولنستمع إلى معلم البشرية فى حديث آخر : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، وبيوتهن خير لهن » .

إن المجتمع كما أراده الإسلام مجتمع يضيق كثيراً من دائرة الاختلاط وهو يغلق كل الأبواب التى تؤدى إلى الرذيلة والفاحشة .

والإسلام — وهو دين الرحمة والحكمة — لا يقول للرجل : انظر ما شئت للمرأة . ولا يقول للمرأة : تحدثى ما شئت إلى من تريدين من الرجال ما دمت على ثقة من نفسك ! ! . ولو قال ذلك لفتح الباب للضعف البشرى . . . وإنما قال الحكيم العليم وهو أعلم بمن خلق : **« يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً . . . »**(١) .

والإسلام وهو دين الواقع الذى يشرع للبشر لا للملائكة لا يقف بتابعيه أمام الإغراء — ولهم عنه مندوحة — ثم يقول لهم : تطهروا ولكنه يهيب بهم أن يبتعدوا ما استطاعوا عن مواطن الإغراء . ومواضع الزلل .

ونحن نتلو فى قرآننا قصة يوسف — عليه السلام — مضرب المثل فى العفة والاستعلاء على الشهوات نتلو فى قرآننا قولة يوسف

(١) سورة النور الآية ٢١ .

عندما راودته امرأة العزيز ، ومعها النساء الأخريات . . نتلو قولته : « **قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه . . .** » . . ولكنه لا يهدأ فى جو الإغراء ولا يستكين . . ولا يقول : إنى قوى متين ولن تتحرك فى نفسى رغبة إلى الجنس ، ولن تهتز فى نفسى رغبة إلى امرأة ولو قال ذلك لفارقته حكمة الأنبياء وحاشاه . . ولكنه قال بعدها — وليتنا نفهم هذا القرآن حين نتلوه — قال بعدها : « **. . . وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن(١) وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم** »(٢) .

إن هذا الدين — وهو من لدن إله رحيم وخالق عليم — لم يجىء ليكلف الناس من أمرهم شططاً ، ولا ليرهقهم من أمرهم عسراً ، إنما جاء ليخاطب الفطرة ، ويلبى احتياجاتها ، وهو فى الوقت نفسه يحميها من ضعفها فلا تسقط ، ويشد من أزرها فلا تميد(٣) . إنه يأخذ بيد الإنسان من كل جوانبه ليتحقق له التوازن الممكن فى كيان مزيج من الروح والطين ، ويحقق له العفة المقدورة والحياء الطهور فى عالم يليق بإنسان . . إنه يأمر بغض البصر . . ويشرع ما يصون هذا الحياء وينميه(٤) ويبدأ هذه الصيانة فى فترة مبكرة : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » .

---

(١) أميل إلى ما يردن بكيدهن وأكن من السفهاء ، وكلامه تضرع أن ينجيه من كيدهن ، ودعاء إلى الله أن يبعده عن مواطن الإغراء .

(٢) سورة يوسف الآية ٣٣ ، ٣٤ . (٣) تميد : تميل تضطرب .

(٤) لا مكان هنا لتقصى هذه المباحث حول الحياء والاختلاط ، وإنما أردت أن ألم بها إلمامة قصيرة رأيت أنه لابد منها ما دمت قد عرضت لموضوع الاختلاط فى التعليم .

الاختلاط فى التعليم الابتدائى

كان النظام الغالب والسائد فى التعليم الابتدائى ما قبل ثورة يوليو حتى نهاية الخمسينات تقريباً هو استقلال المدارس الخاصة بالبنات ، والمدارس الخاصة بالبنين . وكان تعيين المدرسين فى المرحلة الابتدائية أكثره فى مدارس البنين . وكان تعيين المدرسات أكثره فى مدارس البنات . وكانت المدارس المختلطة أكثر ما تكون فى الريف لقلة المدارس وقلة التلاميذ . ثم شاع الاختلاط فى عهد الثورة وزحف — على تفاوت — إلى كل المراحل ، وأصبح الاختلاط فى المرحلة — الابتدائية على وجه الخصوص هو الشائع والمعروف . وقد ترتب على هذا الاختلاط آثار لا أجد فيها أثراً واحداً جديراً بأن يجعلنا نتمسك به أو ندعو إليه .

* * *

جيل فقد القدوة

من المسلم به أن الإنسان يتأثر بمن حوله ، وأن النشء يحاول أن يتخذ لنفسه قدوة يقلدها ويتأثر سلوكها ، وعندما نتطلع إلى تنشئة أجيال من الرجال فإنه من الخير أن يكون النموذج الذى أمام الطفل مدرساً لا مدرسة . إن عوامل كثيرة تكاتفت لتخرج لنا جيلا من الشباب يعوزه الكثير من الرجولة والخشونة . إن جيلا من الشباب الذى يسير فى ميوعة وهو يمضغ العلك أو « اللبان » ، ويتدلى من صدره سلسلة . . ومن حزامه « ميدالية » . . هذه الصورة الشائهة لشبابنا كان من أسبابها فقدان المثل فى السن المبكرة . . فى أخطر مرحلة من مراحل التشكيل .

وقل مثل ذلك فى الطفلة . . نحن فى حاجة إلى أن نضع فى هذه السن المبكرة للبنت مدرسة لا مدرساً . . ولسنا فى حاجة إلى أن نقرر أن أكثر فترة يقضيها التلميذ فى السن المبكرة ما بين السادسة والثانية عشرة هى أطول فترة وأخطرها معاً ، وأنا أخص بالذكر المرحلة الابتدائية لسببين :

السبب الأول : أن هذه المرحلة نجد فيها الطفل أو الطفلة أشبه ما تكون بالعجينة الغضة التى يسهل تشكيلها والتأثير فيها ، وبث ما يراد من قيم فى نفوسهم .

السبب الثانى : أن الطفل فى المرحلة الابتدائية يلازم مدرسين قلائل أطول فترة ممكنة ، هذا إذا علمنا أن هناك مدرسين أو مدرسات فى المرحلة الابتدائية يلازمون الفصل الواحد من الصف الأول أو الثانى حتى الصف الخامس أو السادس ، بل ربما يسند للمدرس أو المدرسة أن تدرس للتلاميذ كل المواد أو معظمها . . وتظل التلميذة أو التلميذ يتابع مدرسه عن قرب . . يتابع حديثه ، يتابع حركته ، ويتابع أسلوبه فى التفكير والمناقشة . . فى الغضب والرضا . . ويخرج الطالب أو الطالبة – كارهة أو راضية – وعليها أو عليه بصمات واضحة من شخصية مدرسه أو مدرسته . وبقدر ما تكون المعايشة التى قد تمتد سنوات مع مدرس أو مدرسة واحدة يكون الأثر بكل سلبياته وإيجابياته .

* * *

المعلمون أبناء العشرين !!

إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين جلال العلم ووقار العلماء فإن هذا الوقار يرتبط كثيراً بالسن والعمر ، والملاحظ أن الوقار هو السمة الغالبة على الكهول والشيوخ ، وأن النزق والطيش والعجالة سمة لازمة للطفل ، وظاهرة مألوفة وشائعة بين الشباب . . وليس ذلك معناه أن كل الكبار أصحاب وقار ، وأن كل الشباب طائشين . . كلا . . وإنما نحن نقرر الصفة الغالبة فى كل مرحلة من مراحل الأعمار .

وعندما يتخرج الطالب فى مدرسة المعلمين ليمارس مهنة التعليم وهو فى سن العشرين فإن الحكمة تقول : إنه من الخير ألا يدرس هؤلاء لتلميذات فى المرحلة الابتدائية بعضهن قد قاربت الثانية عشرة من عمرها أو ربما جاوزتها بقليل . وبعضهن قد تظهر عليها علامات النضوج فى هذه السن المبكرة .

* * *

مــدرس التربيــة الريـاضية

ويزداد الأمر سوءاً عندما يقف مدرس التربية الرياضية يدرب التلاميذ والتلميذات فى المدرسة الابتدائية المشتركة وفى فناء ضيق تكاد مساحته فى بعض المدارس تقترب من مساحة حمام السباحة الصغير ! .

فإذا رغبت إدارة المدرسة أو طلب إليها أن تشترك فى تقديم عرض رياضى فى حفل تقيمه المدرسة أو حفل تقدمه فى مدرسة أخرى على مستوى المنطقة فإن على المدرس أن يدرب التلاميذ والتلميذات فترات طويلة ، وهو يحاول بالطبع أن يدرب المشتركين والمشتركات عن قرب ، وقد يستلزم الأمر أن يساعد التلميذ أو التلميذة عن قرب لضبط الحركة الرياضية أو الإيقاع الحركى وبدلا من أن نبث روح الحياء فى الأنثى فى هذه السن فإننا بذلك نخلع عنها — وبدون أن ندرى — قناع الحياء وكنا فى غنى عن ذلك لو كان المدرب امرأة فى مدرسة لا تضم إلا البنات .

* * *

اعتـــراض ورد

وأنا أعلم أن قوماً من أدعياء الحرية والتطور سيقرءون هـذه السطور ويعترضون . . . ويمطون شفاههم ويتعجبون . . . وأنا أذكر هؤلاء بحديث تعلمناه عن رسولنا : « إن لكل دين خلقاً . وخلق الإسلام الحياء » .

إن هذا الدين العظيم يحرص حرصاً فائقاً على أن ينمى هـذا الحياء فى نفوس المؤمنين والمؤمنات فقرآننا الكريم يقول : « **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون** »(١). ويقول فى الآية بعدها : « **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولايبدين زينتهن إلا ما ظهر منها . . .** »(٢) . ويوجه النداء لنبيه عليه الصلاة والسلام بضرورة التزام المؤمنات ثياب الحشمة والوقار . . مقدماً نساءه وبناته فى التزام الحياء — وهن موضع القدوة بين المؤمنات — قبل غيرهن من نساء المؤمنين : « **يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين . . .** »(٣) .

---

(١) سورة النور الآية ٣٠ .
(٢) سورة النور الآية ٣١ .
(٣) سورة الأحزاب الآية ٥٩ .

إن الإسلام يحرص الحرص كله على أن يظل الحياء قائماً فى النفوس . . عامرة به القلوب فإذا خلع قناع الحياء فقل على الخير والفضيلة السلام .

إن الأجيال حين تفقد حياءها تنطلق ألسنتها بالفحش والسوء فأينما ذهبت قد فتلك لفظة نابية أو جرحت أذنك كلمة فاحشة . . . والأجيال حين تفقد حياءها تنطلق أيديها وأرجلها تنزو وتعبث وتحطم وتسرق . . وتعتدى وتكذب . . فإذا كبرت هذه الأجيال كان منها المزور ، والمختلس والمستغل والمحتكر . . . والمضيع لكل أمانة ، وما واقعنا مما أقول ببعيد(١) ، وصدق رسولنا صلى الله عليه وسلم حين قال : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

* * *

(١) طالعتنا قريباً عصابة السرقة بالإكراه التى يتزعمها مذيع بإذاعة الشعب وتضم ستة من طلاب الجامعة وطالبة بمعهد فنى عال ، وعصابة السرقة مجردة تثير الانزعاج ، فإذا تكونت عصابة للسرقة (بالإكراه) فذلك مؤشر من مؤشرات الخطر لا جدال .

جيل التليفزيون

عندما غزا التليفزيون – بما يبثه خلال الشاشة الصغيرة من مشاهد الغرام أحاديث الجنس – كل البيوت ، تفتحت العيون الصغيرة على أشياء لم تكن تعرفها فى سنها المبكرة . وأصبحت الآية الكريمة التى تبيح للمرأة أن تظهر زينتها لطوائف محدودة من الرجال كالأزواج والآباء والأطفال الذين لم يدركوا بعد مواطن الزينة فى النساء : « . . . **أو الطفل[1] الذين لم يظهروا على عورات النساء . . .** »[2] . وأصبحت هذه العبارة القرآنية التى تشمل قطاعاً من الأطفال يجهلون نوازع الشهوة ومشاعر الجنس ، أصبحت هذه العبارة فى عصر التليفزيون تشمل قطاعاً من الأطفال أضيق من كل القطاعات التى سبقت جيل التليفزيون !

ولم يصبح الأمر مستغرباً عندما يقع بصرك اليوم على تلميذ فى الصف الخامس أو السادس الابتدائى يغازل تلميذة فى سنه ، أو يعلق تعليقاً خبيثاً على سيدة تلبس ثوباً شفيفاً أو قصيراً ! !

* * *

---

(١) الطفل هنا بمعنى الجمع أى الأطفال .

(٢) سورة النور الآية ٣١ .

دورات المياه المختلطة
والحياء المراق !!

فى مدارسنا الابتدائية المشتركة قلماً تجد دورتين منفصلتين . . دورة للمياه وقضاء الحاجة خاصة للبنين ، وأخرى خاصة للبنات ، فالشائع والكثير هو دورات المياه المشتركة . . . ويبدو الأمر بشعاً :

عندما تدخل مدرسة من المدارس تعدادها يصل إلى ١٣٠٠ تلميذ وتلميذة وتجد ثمانى دورات لقضاء الحاجة أربعة عن تمينك وأربعة عن يسارك فى مواجهة البعض والأبواب لا تحكم إغلاقها ، وبعض الأبواب يحتاج إلى ترميم وستر(١) !! ويمكنك أن تتصور منظر البنين والبنات فى هذا الزحام خاصة أثناء فسحة قصيرة لا تتجاوز خمس عشر دقيقة .

رافقنى ناظر مدرسة فى جولة بمدرسته . . . وشكا إلى بشعور الأب المغلوب على أمره ، كيف أن عدد الدورات المشتركة المخصصة للتلاميذ والتلميذات خمس فقط . . . وقال : إن عدد التلاميذ —

---

(١) أضف إلى الصورة منظر هذه الأماكن التى استوردنا تصميمها من بلاد لا تعرف الحرمات ولا تعرف الحياء الرفيع ، والتى صممت ليقضى الرجال فيها حاجاتهم واقفين ومتجاورين .

بالمدرسة ۱۰۰۰ أى أن كل ۲۰۰ مائتين من التلاميذ والتلميذات لهم دورة (مرحاض) واحدة . . . ترى كيف يتناوب التلاميذ ومعظمهم يتردد عليها وقت الفسحة ، فى زحام يشبه يوم الحشر ؟! .

* * *

وخسارة أخـــرى

وليت الحياء الضائع هو كل الخسران فإن هناك ألواناً من العذاب يعانيها الأطفال الصغار عندما يحاولون أن يحصلوا وسط الزحام على مكان . وماذا يحدث لهم لو طال بهم الوقت ومرت الفسحة وطفل صغير بالصف الأول لا يزال « محبوساً » فى طابور الانتظار ؟

* * *

المتهم البرىء !!

فى زيارتى لإحدى المدارس الابتدائية الكبيرة (يقترب عدد التلاميذ والتلميذات بها من الألفين) دخل علينا — أنا والناظر وبعض المدرسين — طالب بالصف السادس من الشرطة المدرسية .. وقد أمسك بتلابيب تلميذ صغير من تلاميذ الصف الأول ، كما يقتض رجل الشرطة على مجرم خطير !!

كان الطالب الكبير يخالجه شعور بالانتصار والزهو .. لقد استطاع أن يضبط حالة خطيرة .. أما التلميذ الآخر .. أو قل الطفل الصغير فقد كان يبكى فى استخذاء وخوف .

ما الجريمة يا ترى ؟

لقد ضبط أسفل السلم المدرسى وهو يحاول أن يتبول !!

كنت من قبل قد اطلعت على دورات المياه ، وعلمت أن بالمدرسة دورتين .. إحداها مستقلة للبنات بها أربعة كنف تصلح للبراز .

ودورة أخرى للبنين أشبه بحجرة صغيرة بها أربعة أماكن هيئت للتبول وقوفاً فقط !!

فى الفسحة القصيرة .. ووسط هذا الزحام فى الدورة الصغيرة أين يجد مكانه هذا الصغير وسط الكبار من تلاميذ الصف الرابع والخامس والسادس ؟ .. وفى فسحة لا تزيد عن ربع الساعة يدق

الجرس قبل انتهائها ليقف التلاميذ فى نظام قبل الانصراف إلى الفصول ؟!

وقلت للناظر : أسألك بالله وأنت أب قبل أن تكون ناظراً .. ماذا كنت صانعاً لو كنت مكان هذا الطفل الصغير وأحسست بالحاجة الملحة إلى ؟

إنك حتما ستصبح بين أمرين أحلاهما مر .

فأنت .. أقصد الطفل إما أن يتصرف كما حاول بالفعل وساء حظه ووقع فى قبضة الشرطة المدرسية .. وإما أن يحاول الانتظار ، وهنا خطر متوقع . أو قل محقق .. وهو أن يتبول على نفسه ثم يواجه أقرانه بالفصل وخارج الفصل .. ويتعرض للسخرية والاستهزاء أو تضربه المدرسة بدعوى أنه قذر حقير !

ونحن — إن وقع ذلك — نكون قد حطمنا نفس الصغير وهززنا شخصيته هزة قد تبقى معه طوال عمره .

ورد الناظر قائلا : هذا صحيح .. ولكن ماذا أصنع وقد بح صوتى مطالباً الإدارة التعليمية(١) بإنشاء دورات للمياه كافية لهذا العدد الضخم ، ولكن صوتى كان صرخة فى واد !! . إنما مثلى كمن قال فيه الشاعر :

ألقاه فى اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

وقلت ضاحكاً فى مرارة : لست أدرى أيكما الغريق .. أنت أم الطفل المسكين ! وإن كان الغريق على وجه التحقيق هو ذلك الصغير الذى كاد أن يبتل بالماء حقاً !! .

---

(١) عاصر هذا الحادث أيام كانت المدارس تستعد فيه للاحتفال بعيد الجيزة القومى وتنفق فيه سنوياً المئات ، بل الألوف .. ولست أدرى معنى للعيد . أى عيد . . وبين جدران مدارسنا أمثال هذه المأساة !!

مُدَرِّسَة فى اعدادى بنين !

وجريا مع رياح التطور العاصفة ... والغريبة على ديننا وتقاليدنا زحفت المدرسة إلى طلبة المرحلة الإعدادية للبنين ... ويمكنك أن تتصور معى – أيها القارئ والقارئة – منظر المدرسة وهى تجلس فى إحدى الحجرات .. حجرة الناظرة .. أو حجرة المدرسات .. أو المدرسين – إن وجدت.. ! ! – منظر المدرسة وقد وضعت ساقاً فوق ساق .. أو جلست جلسة مسترخية لحظات بعد أن قامت بشرح الدرس .. أو منظر المدرسة وقد وقف بجانبها عن قرب – وهى شابة من الخريجات الحديثات – تلميذ يتابع ملاحظاتها الدقيقة فى كراسته ، أو منظر هذه المدرسة وهى تلبس ثوباً قصيراً وقد أعطت التلاميذ ظهرها ورفعت يدها إلى أعلى لتكتب على السبورة أو تشرح ! ! وغنى عن التعليق أن نقول أن تلميذاً فى هذه السن التى تتفتح فيها مشاعر الجنس لا يمكن أن يتابع درساً تشرحه مدرسة قد تتحول فى خياله المراهق إلى حسناء تغذى خياله وتؤجج مكنون رغباته ! !

* * *

ومدرسة فى الثانوى بنين

فى إحدى المدارس الثانوية المرموقة كانت هذه التجربة الرائدة ! مدرسة تدرس مادة ما .. استقدمت للمدرسة .. المدرسة محتشدة بطلاب معظمهم قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره وبعضهم قد يبلغ العشرين ولن أنقل لك الصورة حين تقف المدرسة الشابة لتشرح ، إنما حسبك أن تعلم أن المدرسين الرجال يعانون أشد المعاناة من كبح جماح التلاميذ فى هذه السن فى مدارس البنين .. ولا يستطيعون أحياناً كثيرة أن يحولوا بين التلاميذ وتعليقاتهم الوقحة أثناء الحصة .. ونكاتهم البذيئة وسخافاتهم المتكررة .. فماذا تستطيع أن تفعله المدرسة أيها السادة المتطورون ؟! .

* * *

ليست الضرورة وليس العجز

ولا أعلم ضرورة تربوية ولا تعليمية واحدة تقنعني بانتداب هذه المدرسة فى هذه المادة .. فمدرسو هذه المادة على وجه الخصوص بمدارس البنين كثيرون ويمكن — إن كان هناك عجز — أن ينتدب أو ينقل لمدير المدرسة ما شاء منهم .. ولكن إدارة المدرسة فيما يبدو قد أصابها شيء من الزهد فى المدرسين الذكور وراحت تختار — لسبب تربوى لا أدريه — هذه المدرسة على وجه الخصوص ! .

* * *

المُدَرِّسَة الطُّعْمَة

هذه الحكاية الدامية الخجلى ! يرويها لى زميل ثقة ومدرس صديق .. وأقدمها هدية للموجهين الأوائل ولغيرهم من المسئولين . للمتطورين الثائرين على دعاة التخلف والرجعية من أمثالى ! !

مدرسة تمارس مهنتها فى مدرسة ثانوية للبنات .. وطاب للموجه الأول من مادتها أن تنتقل للتدريس فى مدرسة صناعية للبنين !

وذهبت المدرسة .. فتاة فى حوالى الخامسة والعشرين .. دخلت الفصول لتدرس عانت المسكينة معاناة شديدة من مواجهة الطلاب وتعليقاتهم .. وذهبت إلى ناظر المدرسة تشكو له متاعبها باعتباره رجلا مسئولا وفى سن والدها ! .. وسألها بشىء من التفصيل عن نوع هذه المتاعب قالت : إن تلميذاً يقول لى : « أنت طعمة أوى » ماذا قال الناظر الأب ؟! قال فى نهم وإعجاب : ما هو أنت طعمة صحيح ! ولم تجد الفتاة المسكينة — وقد اعتصرتها حمرة الخجل — إلا أن تفر إلى مدرسة البنات لتثبت إلى الناظرة والمدرسات شكواها .. وكانت فيما حكته من تصوير شعورها وهى تواجه نظرات الطلاب البالغة فى الوقاحة : أنها كانت تحس — من فرط الحياء — أنها عارية ! وأسأل السادة أدعياء التطور ما الكسب الضخم الذى نجنيه بهذه الانتدابات أو التعيينات العشوائية عندما نرسل بهذه النخبة من المدرسات إلى مدارس البنين .. البنين الكبار ! !

ومدرسة للتاريخ الطبيعى فى البنين

ويبدو الأمر شديد الإحراج عندما نبعث بمدرسة التاريخ الطبيعى إلى مدرسة ثانوية للبنين وتجد نفسها أمام باب من أبواب المقرر فى الصف الثانى الثانوى اسمه « التكاثر فى الكائنات الحية » وإذا كان المدرس الرجل الذى يشرح للشباب من الذكور باب الجهاز التناسلى فى الثدييات يواجه عواصف من التعليق والغمز فكيف يمكن — باسم المساواة بين الجنسين وبدعوى المدنية والتطور — كيف يمكن لمدرسة بها بقية حياء أن تواجه شباباً فى هذه السن الحرجة لتشرح لهم أية مادة فضلا عن أن تشرح لهم مثل هذا الباب المقرر فى الأحياء (١) !

وبغير ما عناء كبير يمكننا أن نتصور مدى الحرج والخجل الذى يشعر به كل من التلميذة والأستاذ عندما يشرح للتلميذات مدرس لا مدرسة هذا الباب المقرر فى التاريخ الطبيعى أو علم الأحياء .

* * *

---

(١) أصبح اسم المادة : التاريخ الطبيعى بدلا من (الأحياء) .

الفنون .. وصورة فى الذاكرة

فى إحدى المدارس الثانوية للبنات ، ورغم مرور ما يزيد على تسع سنوات فما تزال ذاكرتى تحتفظ بهذه الصورة جيداً !! صورة وفد من الشباب الذكور جاءوا إلى المدرسة من كلية الفنون ، وفى سنواتهم الأخيرة ومعهم المشرفة ليسند إليهم تدريس حصص التربية الفنيةبدلامن المدرسات الأصليات بالمدرسة فيمايسمونه التدريب العملى .

ولست أبالغ حين أنحل القراء مشاعر التلميذات وهن جميعاً بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة حين وجدن أنفسهن ـ بعد تقسيمهن لمجموعات ـ أمام شبان بين العشرين والثانية والعشرين ! .. وكان الحرج يبدو بينا واضحاً على وجوه المتحفظات منهن ، بينما بدت البشاشة والبهجة على وجوه الأخريات ! .

وسألت نفسى كما سألت الناظرة : أليست كلية الفنون خليطاً من الذكور والإناث ؟ قالت : نعم . قلت : ما الحكمة فى أن يأتى وفد الشبان إلى مدرسة البنات ليقضوا فترة التدريب العملى ، وما الهدف التربوى العظيم الذى جعل الإدارة المشرفة على التدريب تبعث بالفتيات ليقمن بالتدريس والتدريب فى مدارس ثانوية للبنين ؟!

ولم أشأ أن أخاطب المشرفة على التدريب فقد كان السؤال بالنسبة لها محرجاً .. فهى مشرفة لا مشرف .. وأحسب أن المشرف قد مضى مع طالبات الفنون الجميلة إلى إحدى المدارس الثانوية للبنين ! !

الفن .. وحســـن الظـــن

وقد يقول قائل : ما يزعجك أيها العزيز . وأنت تعلم أن الفنون الجميلة تعلم الرقة فى الإحساس ، والشفافية فى الشعور ؟ ثم ماذا تستنكره من طلاب التربية الفنية وقد ألفوا هذه الأمور(١) ؟ وقد درسوا الفنون على نماذج حية .. ولا أقول عارية ! إنه الفن . لا يعرف ما يخالج نفسك من الحذر والحيطة وسوء الظن ! !

* * *

(١) قد يقول قائل : إن الأمر عادى ومألوف بالنسبة لطلاب وطالبات الفنون فهن يدرسن فى جو مختلط ، وأرد على الاعتراض بأمرين: أولا: إن الجو لا يزال غريباً بالنسبة للطلاب والطالبات بالمدارس الثانوية ، ثم إن الخطأ – خطأ الاختلاط فى الجامعة – لا يبرر الخطأ ! !

الطبيب المهذب !

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر كما يقولون ، فإنني لا أزال أذكر ذلك الطبيب الذى بعثت به الوحدة الطبية ليجرى كشفاً باطنياً على الطالبات فى مدرسة من مدارس التعليم الفنى الثانوى للبنات .. وأذكر – رغم مضى ما يقرب من عشرين عاماً – كيف شكت إلى بعض البنات أو المحن إلى بأن الطبيب الذى يكشف عليهن يتعمد دائماً أن يمد الكشف إلى صدورهن بغير حاجة تستلزم هذا الإجراء المكشوف !!

ويبدو أن هذا الطبيب قد بدرت منه عدة سفاهات حين كان يتردد أحياناً ليلقى بعض المحاضرات فى التمريض والإسعاف ، وحول إلى الاستجواب والتحقيق .

ومنذ عشرين عاماً كان هناك مبرر – ونسبة خريجات الطب يومذاك قليلة – حين كان يذهب طبيب لإجراء كشف طبى فى مدرسة للبنات . أما اليوم وقد زادت نسبة الخريجات من الطبيبات ترى ما يمنع أن يقمن بالكشف الطبى على الإناث ، ويتوجه الأطباء الذكور للكشف على الطلاب فى مدارس البنين ؟

* * *

الضرورات تبيح المحظورات

هناك قاعدة أصولية تعلمها المسلمون من دينهم هـذه القاعدة التى تقول : الضرورات تبيح المحظورات .. وهو أمر يصدق تماماً فى حالات العلاج التى تحتم أحياناً على الطبيب المتخصص أن يقوم بعلاج دقيق للمرضى .. أياً كان جنسهم ذكوراً أو إناثاً .. ولكننى لا أفهم موضعاً للضرورة حين يتوجه طبيب إلى مدرسة للبنات ، وتذهب زميلته الطبيبة الشابة — وفى نفس التخصص — إلى مدرسة ثانوية للبنين !

وتبدو المسألة محرجة تماماً حين يسند إلى الطبيبة الأنثى مهمة الكشف الشامل على الطلاب فى مدارس البنين ، ويسند — بلا ضرورة أومبرر — مهمة الكشف الطبى الشامل — إلى طبيب شاب فى مدارس للبنات .

ما الذى تخسره الإدارة الطبية التابعة للتعليم العالى أو المتوسط إذا نسقت العمل بين الأطباء والطبيبات ؟ .. وهل تخسر أمتنا أم تكسب حين نرفع الحرج ونضيق نطاقه ونحن عليه قادرون ؟

وهل تخسر أجيالنا أم تربح إذا أفسحنا المجال لمزيد من الحفاظ على الأرض أن تخدش ، ولمزيد من الحفاظ على الحياء أن يراق ؟

* * *

العروض .. والعيد العظيم

تهتم مدارسنا اهتماماً بالغاً بالأنشطة والمعارض . وتهتم اهتماماً خاصاً بالعروض الرياضية . ولا عليها أن تضحي في سبيل ذلك بالانتظام المدرسي أو الحصص أو ما نسميه بالتحصيل العلمي ، ولا يزال عيد الجيزة القومي يضحي من أجله بمعظم الشهرين الأخيرين من العام الدراسي . وتجند معظم المدارس لتشارك في هذا العيد العظيم ! ! .

ولا يزال الاهتمام يتزايد .. والجهد يتصاعد ويتواصل .. سنة بعد سنة .. لتنال المدارس كلمة تقدير ونظرة عطف من الزائرين .. السيد الوزير – السيد وكيل الوزارة – السيد المحافظ أو أي من المسئولين الكبار في التربية والتعليم .. وأرح نفسك من كل نقد يوجه إلى هذا اللون المدمر من النشاط(١) .. في أحرج وقت من أوقات العام الدراسي حيث يحاول المدرسون أن ينجزوا عملهم وأن ينتهوا من مناهجهم ، وأن يفرغوا من المقررات ويتابعوا ما حصل وأن يراجعوا ما درس خلال العام كله .

---

(١) كتبت فصلا خاصاً عن النشاط المدرسي في مدارسنا ضمن السلسلة التي شاء الله أن يكون هذا الكتاب « الاختلاط بين الجنسين » إحدى حلقاتها ، كما كتبت فصلا خاصاً عن المباني المدرسية وعدم صلاحيتها للتحصيل العلمي الذي ننشده فضلا عن صلاحيتها لألوان النشاط المدرسي .

ولا يغيبن عن بالك موعد العيد العظيم .. عيد الجيزة القومى ٣١ مارس .. وتبدأ معظم الاحتفالات والعروض الرياضية فى أبريل وتكون المدارس قد بلغت من الاضطراب قمته . وتكون الأمور قد زاطت وهاصت .. وينفض السامر العلمى وينفرط عقد اليوم المدرسى .. ويضطر كثرة من التلاميذ الجادين إلى الاعتصام فى البيوت وأعود فأكرر العبارة التى ذكرتها من قبل .. « دع عنك كل نقد يوجه إلى هذا اللون المدمر من النشاط .. » فالنشاط أولا .. والعلم أخيراً .. أو إن شئت فقل بلسان الحال وترجمة لواقعنا التعليمى : النشاط أولا .. والنشاط أخيراً !! ودع عنك مكبرات الصوت التى بدأت تزحف إلى المدارس ليكون التدريب فى فناء المدرسة الضيق أنشط وأنفع .. وليكون التأثير – من خلال « الميكرفون » أعظم وأسمع !!

* * *

الكواعب .. والمدربون

فى خلال زيارتى لمدرستين ثانويتين للبنات لفت نظرى وجود بعض الشباب يقف أثناء التدريبات الرياضية داخل المدرسة .. يقفون بالقرب من البنات وهن يؤدين التدريبات الرياضية ، وسألت المدرسة الأولى المسئولة عن التربية الرياضية بالمدرسة لماذا يقف هؤلاء الشبان هذه الوقفة المريبة : قالت : إنهم مدربون .. جاءوا ليدربوا البنات استعداداً للعرض الرياضى .. وأحسست بدمى يفور ورأيتنى أسألها : ألستن مدرسات للتربية الرياضية ؟ قالت : طبعاً .. قلت : فلماذا جاء هؤلاء الشبان ؟ .. قالت : لمزيد من التدريب . قلت لها : هل تعانى الوزارة نقصاً فى المدربات حتى تستقدم إدارة المدرسة هؤلاء المدربين الشبان ؟ قالت : هناك مدربات كافيات .. ولكن المدربين الذكور أكثر جلداً وأشد صبراً فى التدريب من المدربات !! .

ونظرت فى مرارة وأسى .. البنات كواعب(١) ناهدات(٢) .. وشبان فى شرخ الشباب . يسند إليهم مهمة التدريب — فى مشروعية

(١) تقول المعاجم : كعبت الفتاة أو الجارية إذا برز ثديها وأشرف ، فهى كعاب وكاعب ، والجمع كواعب ومنها قوله تعالى فى وصف نعيم الجنة : « حدائق وأعناباً . وكواعب أتراباً » سورة النبأ الآية ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) ناهدات : بالمعنى نفسه .

كاملة ! – ليقفوا عن قرب قريب .. يشاهدون الحركات ، ويعدلون المسار ، وينظمون الإيقاع .. ! ! .

وتتحرك الطالبات الناضجات .. تميس منهن الأيدى والأكف وتتحرك منهن الأرجل والأقدام .. يهتز منهن ما يهتز .. ويظهر منهن ما لا ينبغى أن يظهر . ويخالف أمر الله وشرعه .. إنه سبحانه – درءاً للفتنة ومنعاً للشهوات .. وإغلاقاً لأبواب الانحراف يقول للمؤمنين والمؤمنات : « ... **ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن** » ولكن الأرجل تتحرك .. والسيقان ترتفع وتنخفض .. وتميل الأجسام وتنساب الحركات ! .. ولكن – مرة أخرى – ما لنا ولأمر الله .. وما لنا والحياء .. هذه قضية أخرى ! ! فليسعد الشبان المدربون ! !

وليهنأ المسئولون والزوار بالأعراض والعروض ! !

ولتحيا الرياضة .. وليسقط المتزمتون ! !

* * *

شيئاً من التنسيق ... ياسادة

وقبل أن أختم الموضوع - موضوع الاختلاط - أحب أن أؤكد هنا أنه بشيء من التنسيق نستطيع أن نصنع الكثير .

أما في المرحلة الابتدائية فإنه باستطاعتنا - لو صدق العزم وخلصت لله النية - أن نعود إلى نظام لنا سابق (نظام المدرسة الابتدائية للبنين ، والمدرسة الابتدائية للبنات) وأنه لمن اليسير جداً أن تقوم المناطق التعليمية بحصر المدارس والفصول وعدد التلاميذ والتلميذات ثم تقوم بتوزيع التلاميذ على مدارس تخصص للبنين ، وتوزيع التلميذات على مدارس تخصص للبنات . ويصنع مثل ذلك مع المدرسين والمدرسات . وقد لا نستطيع أن ننفذ هذا الأمر تمام التنفيذ . ولكننا نستطيع بالقطع أن نضيق كثيراً من دائرة هذا الاختلاط المشين .

أما في المرحلة الإعدادية والثانوية فالأمر ممكن تماماً - باستثناء بعض المدارس بالريف - إذ لا معنى لإرسال مدرسة إلى مدرسة من مدارس البنين وهناك مدرسون تزحم بهم مدارس البنات .

ولا أظن أن هناك سبباً جوهرياً واحداً يدفع الموجهين الأوائل لهذا التوزيع إلا أن يكون استجابة مضحكة لدعوى التطوير والتمدن ، أو تقليداً جديداً لا يخدم علماً ولا يرضاه دين(١) .

---

(١) من مدة ليست سحيقة كان يختار من المدرسين الذكور لمدارس البنات - عندما تقتضي الحاجة - من يوثق في دينهم وخلقهم ، وكان المتزوج - لا الأعزب - هو الذي يختار في العادة للتدريس هناك . . . وليتنا نعود إلى قيمنا .

كلمـــة خاتمـــة

وبعد .. فهذه سطور سجلتها .. لم يملها حماس طارئ ولا غيرة عارضة وإنما هى ثمرة مشاعر متعلقة ، وحصيلة ملاحظ متأنية ، وخلاصة تجارب طويلة ... عاشها معلم فى حقل التعليم ، أحب مهنته وأخلص لها ، كما أحب تلامذته وأحبوه ، وكان هذا الرباط المتين بين العطاء والوفاء من أجمل السلوى والعزاء فى هذه المهنة الثقيلة أمانتها البالغة تبعتها ، الخطيرة رسالتها ، وتعليم الأجيال وتربيها وبث معانى الخير فى نفوسها ليس بالشىء الهين ، وإنما هو أمر عظيم عظيم .

وأنا أعلم أن فئة من الناس ستضيق بهذا الكتاب لأنها تحب الاختلاط تهش له وتبش .. وتنفخ فى بوقه ، إما جهلا بالأمور وجرياً وراء التقليد . . وإما لؤماً فى الطباع وهوى فى النفوس ولست أجد لهؤلاء — مع وضوح الرؤية وجلاء الحق — إلا قول الله عز وجل : **« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ... »** .

ولكننى أعلم فى الوقت نفسه أن سطور هذا الكتاب ستنشرح لها صدور وتبتهج لها قلوب . . حرصاً من هؤلاء على العلم ، وغيرة منهم على العرض . وإخلاصاً منهم لأجيالنا .. وإحساساً منهم بأن هذه الأجيال الناشئة إنما هى أمانة بين أيدينا سوف نسأل عنها يوم الحساب والجزاء .

وإلى هؤلاء الغيرى والمخلصين أسوق إليهم قول الله عز وجل :

« ... فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ... » .

وعلى الله قصد السبيل وبالله وحده التوفيق ..

المؤلف

• • •

فهرس الكتاب

فهرس الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

* * *

دار العلوم للطباعة
القاهرة ٨ شارع حسين حجازى « قصر العينى »
ت ٠٣٥٥١٧٤٨٠

رقم الايداع بدار الكتب

٣٢١٣ — ١٩٨٦